وفد فيلسوف

هنري برجسون

لعلي أدهم

نعت اخبار فبراير في اليوم الخامس من يناير الى العالم الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت هنري برجسون ، وقد طويت بوفاته صحيفة فيلسوف من كبار فلاسفة العصر ومفكر ممتاز في الطبقة الاولى من اصحاب المذاهب الفلسفية الحديثة والابنية الفكرية الرائعة . وبرجسون مفكر جم الطرافة ، عميق التفكير ، بارع الاداء ، وقد لفتت فلسفته الانظار منذ شبابه الباكر وظهور طلائع مؤلفاته ، ومذهبه مثل سائر المذاهب الفلسفية التي اشتهر امرها وذاع تأثيرها ، استهدف لنقدات هادمة واخضع لتحليلات قاسية وتلقى هجمات عنيفة ، وقد قاوم فلسفته في فرنسا نفسها المفكر الفرنسي المعروف جوليان بندا ، ونقدها نقداً بارعاً الفيلسوف المعاصر جورج سانايانا في بحث مستفيض ، ولم يسلم برتراند رسل من تعقباته اللاذعة وملاحظاته الثقيلة

وقد مات برجسون عن سن عالية فقد ولد في باريز سنة ١٨٥٩ وأسرته من اصل ارتدي ، والموت هو النهاية التي كانت منتظرة له وقد أدى واجبه وابلغ رسالته ، ولكننا كنا نود لهذا الفيلسوف السمح ان يودع الدنيا في احوال أسمح وأقل حلكاً من الاحوال الوائمة التي تعاني فيها فرنسا ذل الهزيمة وألم التخاذل ، وسيتيح موته للمفكرين والباحثين ان يمعنوا النظر في فلسفته ويراجعوا سابق آرائهم فيها ، لانها اكتسبت بوفاته الصورة النهائية التي لا يتوهما تعديل ولا رجوع عن موقف او جلاء بعض المشكلات او دفع بعض الاوهام والاخطاء

وقد يكون من الخير ان نذكر في هذا العصر الذي غلبت فيه على بعض الاثر الآراء العنصرية الزائفة ان برجسون احد اربعة من ابناء اسرائيل كان لهم تأثير كبير في التفكير الحديث ، والثلاثة الآخرون هم فرويد العالم النفسي الذي قال عنه ماكدوجال انه أكبر عالم نفسي عرفته الدنيا منذ عهد ارسطو ، وانيشتاين صاحب الآراء المعروفة في النسبية ، وشبنجلر مؤلف كتاب « تدهور الغرب » الذي كان له تأثير كبير في دراسة التاريخ والموازنة بين الحضارات

ولست احاول في هذا المقال تحليل فلسفة برجسون او ارسم صورة دقيقة لها ، وانما اريد ان اشير الى بعض نواحيها البارزة وبعض ما انتشرت عنه من الافكار المرتبطة بالاحوال الحاضرة

أوضح برجسون أفكاره الاساسية واتجاهاته الاصيلة في طائفة من المؤلفات ، أشهرها «الزمان والارادة الحرة» الذي ظهر في سنة ١٨٨٩ ، و«المادة والذاكرة» وقد ظهر سنة ١٨٩٦ و«التطور الخالق» وهو أجمع مؤلفاته لفلسفته وأكبرها شأناً وقد ظهر في سنة ١٩٠٧ وهو أقوى دعامة تقوم عليها شهرة برجسون وفلسفته

وفلسفة برجسون التي بسطها في هذه المؤلفات تبدو سهلة يسيرة شائقة الغرض بديعة الاسلوب موفقة المجازات والاستعارات بديعة التشبيهات ، ولكنها قائمة على وجهة نظر طريفة قد يجد الانسان صعوبة جمة في إدراكها . وكما أن أنصار مذهب الذرائع (البراجماتزم) قد استندوا في فلسفتهم الى قول الفيلسوف اليوناني بروتاغوراس « ان الانسان مقياس كل شيء » فكذلك برجسون يستند في فلسفته الى قول هرقليطس « ان الاشياء في تغير متصل » وفهم هذه الفكرة الهينة في مظهرها هو الصعوبة الكبرى في فلسفة برجسون ؛ وسأوضح في ايجاز كيف انتهى برجسون الى هذه الفكرة ثم أبين طبيعتها وأشفع ذلك بالحديث عن الوجهة الموكلة بادراكها

أن الطريقين اللذين أفضيا برجسون الى الاعتقاد بأن الاشياء في تغير متصل هما علم الحياة وعلم النفس ، فقد كان المتعارف عند العلماء أن حقائق النشوء والارتقاء إما أن يكون مصدرها النوعات التي طرأت على الانواع بطريق المصادفة وتكررت وبقيت للاءمتها البيئة كما رأى داروين ، وإما أن التكيف للاءمة البيئة هو العامل الحاسم في النشوء والارتقاء كما رأى لامارك وكلما تغيرت البيئة تبع ذلك تغير في الانواع لمحاولتها الملاءمة بين نفسها وبين التغير الطارىء واكثرها نجاحاً في عملية التكيف يبقى ويصلح والذي يعجز يفنى ويفرض ، وواضح أن هذين المذهبين يرجعان بالتطور الى البواعث الآلية المحضة الخالية من أثر العقل أو تحري القصد

وهذا التصور الآلي للكون يرفضه برجسون ، ويجهد نفسه في جمع حقائق شتى من عالم الحشرات وعالم النباتات وعالم الحيوانات لا يفسرها هذا النظر الآلي تفسيراً يصح أن يطمأن اليه وملاءمة البيئة أو بقاء الاصلح لا يفسران لنا بحال النوعات الفجائية التي تطرأ على الانواع ويتساءل برجسون « اذا كان العامل الحاسم في التطور هو الملاءمة للبيئة والتكيف بحسب مقتضياتها فلماذا لم تقف حركة التطور منذ آلاف السنين ؟ »

ولماذا تظل الحياة تقتحم في خلق تغيرات جديدة ؟ ولم لم تطمئن الى ما وصلت اليه من تجاوب ووفاق مع البيئة ؟ أليس معنى ذلك ان خلفها حافزاً يحدوها على اقتحام العقبات والاندفاع الى غايتها المنشودة وهي المزيد من التفوق والاستعلاء ؟ وهذا الحافز هو ما يسميه برجسون الدافع

الحيوي والعامل المحرك للتطور ... ده لغموض أمر الذكاء ... ارتقاء والنوى تفسيره

وحقائق علم النفس كذلك تؤدي بنا الى هذه النتيجة ، والمذهب الآلي في علم الحياة نظير في علم النفس يحاول ان يعزو كل ما يطرأ على الوعي من الأحاسيس والتأثرات والأفكار الى مايحدث للجسم ، وبرجسون ينكر الاكتفاء بذلك ويؤيد رأيه بشواهد متعددة عن حالات نفسية مستقلة عن التأثرات العضوية ، والتفسير الآلي في رأي برجسون لا يعلل لنا وجود « العقل الباطن » ؛ والمخ عند برجسون شيء غير الوعي ، وليس هو سبب الوعي ، وانما هو مجرد عضو الوعي او الباب الذي ينفذ منهُ الوعي الى المادة

واذا كان الوعي مستقلا عن المخ ، وانهُ يتخذ المخ وسيلة لأغراض خاصة فكيف نحدد الوعي إذاً ؟ الجواب على ذلك ان الوعي هو « الدافع الحيوي » ، ويحاول برجسون بعد ذلك ان يبين لنا حقيقة الوعي ، وعنده ان الوعي يبدو لنا في بادىء الأمر على أنهُ مكوَّن من حالات نفسية متعاقبة ، كل منها وحدة قائمة بذاتها ، وهذه الحالات متشابكة ومترابطة بعضها ببعض ويتكوَّن منها ما يسمى « النفس » كما يتكوَّن العقد من الفرائد ، ولكنا اذا استبصرنا ظهر فساد هذا الرأي ، ومصدر الخطأ هنا أننا عندما نسلم بأن حالة من الحالات قد تبدلت وذهبت لطيتها وأنسحت الطريق لغيرها يغرب عن بالنا ان نفس تلك الحالة لم تستقر بصورة نهائية ، وان ما نخاله بقاءها لم يخرج عن كونه تغيراً مستمراً ، وأنت اذا لمحت شيئاً ثابتاً من زاوية خاصة وفي نفس الضوء ثم كررت الظرف نحوه كرة ثانية كانت اللمحة الأولى مختلفة عن اللمحة الثانية لأن احداهما أقدم من الأخرى ، واذا كان ذلك كذلك في مشاهدتنا للمحسوسات الخارجية فهو أصدق في ادراكنا للحالات الداخلية ، فنحن نتغير بدون انقطاع ، والفكر والاحساس والارادة كلها في تغير دائم ما بين طرفة عين وانتباهتها

وليس هناك اذاً فرق حقيقي بين الانتقال من حالة الى حالة او البقاء على ما يسمى « حالة واحدة » ، ونحن نتخيل هذا الفرق لأننا لا نحس هذا التغير الا بعد ان يصير من الوضوح بحيث يجتذب انتباهنا فنعترف حينذاك بأننا قد انتقلنا من حالة الى حالة جديدة ، ونستخلص من ذلك ان هناك حالات عقلية متعاقبة . ومن اجل ذلك نخال انفسنا اشخاصاً ثابتة على الدوام برغم التغير ، ولكن الحقيقة ان كل شيء في تغير ، وينتهي برجسون الى اننا انفسنا في تغير متصل وان حياتنا في صميمها هي « التغير » ، والنفس التي لا تتغير غير موجودة ، والواقع انهُ لا حقيقة سوى « التغير » ، فنحن جوهرنا التغير وكذلك جوهر الكون ولب لبابه هو التغير ، والوجود فيض مستمر والتطور هو حركة الدائبة

ولكن كيف ندرك ذلك ؟ ان هذه الحقيقة الكبرى لا تدرك عن طريق العقل وانما تدرك

« بالبصيرة » او « الحدس » . وفلسفة برجسون تشك في العقل وتراه محدوداً قصيراً لا يستطيع الوصول الى الحقيقة لان عمله التجريد والتحليل والتقسيم ، ولا ينكر برجسون ان العقل يوافينا بمعلومات نافعة وضروب صالحة من المعرفة ولكن هذه المعرفة محدودة ضيقة المدى الى حد كبير ، وقيمتها متوقفة على فروض لا برهان عليها ولا دليل على مطابقتها للواقع ، ومعرفتنا المستمدة من العقل والتجربة ربما تكون سراباً خداعاً ومظهراً زائفاً . وهناك مسائل كثيرة يعجز العقل عن ادراكها ولا يستطيع تفسيرها ، ولكي نحصل على المعرفة الحقيقية يلزم أن نسلك أسلوب التفكير ونعدل عن التحليل والتفسير والتعليل . ويقول برجسون في رسالته النفيسة التي اسماها « مقدمة ما وراء الطبيعة » « يوجد طريقان مختلفان لمعرفة اي شيء من الاشياء ، الطريقة الاولى هي ان نطوف بالشيء ونلم به الماماً ، والطريقة الثانية هي ان نخلص اليه ، والطريقة الاولى متوقفة على وجهة النظر التي نصعد منها وعلى الرموز التي نعبر بها عن افكارنا ، والطريقة الثانية لا تتوقف على وجهة النظر ولا تعتمد على الرموز ، والمعرفة الاولى تقف عند النسبي والمعرفة الثانية تنتهي الى المطلق »

وفلسفة برجسون محاولة هادمة لزحزحة العقل عن مكانته وانزاله من عليائه والعقل وظيفة مفيدة في ذاتها وهي العمل في عالم المادة . ويتبين عجز العقل عند ما يحاول ان يغير عالم الروح او يتغلغل الى كنه الواقع ، وقد عمل العقل الحديث في عالم المادة فنجح نجاحاً باهراً وحاول أن يقتحم عالم الروح فشل فشلاً ذريعاً . ويرى برجسون اننا اذا تخلصنا من سلطان العقل واعتمدنا على البصيرة استطعنا ان نعرف الحقيقة معرفة مباشرة وأرحنا العقل من عمل لا يصلح له . ويتظاهر برجسون بأنه لا يريد أن يضيف الى المذاهب الفلسفية مذهباً جديداً وانما يريد أن ينحو نحواً جديداً في التفكير ، وان يعتمد هذا التفكير على البصيرة لا على العقل

من أمثلة ذلك اننا عند ما نشاهد صورة من الصور قد نراها عقب النظرة الاولى مجموعة من الخطوط والرسوم والألوان قد رسمها المصور الفنان على اللوحة ، وقد نراها بعد النظرة الثانية مجموعة غير موزعة وندرك أن حقيقتها متوقفة على هذا التكل المتماسك لا على التفصيلات والدقائق ، ونحن بالبصيرة نفهم طبيعة الحقيقة من حيث هي كل لا يتجزأ ، والفنان العظيم يستطيع ان يأتي بالروائع والآيات الفنية بنفاذ بصيرته خلال المظاهر السطحية وتطلعها الى مضمر الأسرار المستقرة خلف المظاهر ، ورؤيته لهذه الحقيقة هي التي تقوم عليها عصمة فنه ، وهو يعيد تصوير هذه الرؤية على اللوحة ، وجوهر الصورة هو حقيقة تلك الرؤية لا الألوان والاصباغ والأشكال والرسوم أو براعة الصناعة والقدرة على الاداء ، وانما يستطيع الفنان العظيم ذلك بالتغلغل العاطف الى صميم موضوعه واكتناه معناه

دي سريزي وأطامعه على أفكار هذا الشاب وتتبع مآربه وانضم بكليته اليه وما لبث الطيب رغب في ان يكون حائزاً لأعظم السفن الحربية واستدعت الحال التفكير في انشاء دار صناعة عظمى

ولما كانت تجهز الأدوات اللازمة بأوربا لقيام بهذا العمل في مصر كان مسيو دي سريزي منهمكاً في فحص أرض الشاطىء لاختيار أكثر المواضع صلاحية للرسانة المزمع تشييدها فوجد على شاطىء مربوط العمق اللازم من الماء غير انهُ وجد هذا الشاطىء عرضة لهجمات الأمواج عند ثوران البحر ورأى إقامة الترسانة عليه تستدعي إقامة حاجز يصد عنهُ هجمات الأمواج ومع هذا فقد شرعت الجنود تمهد أرض هذا الشاطىء المكوَّن من حجر جيري رخو لايجاد المنحدر اللازم لمدّ المنشآت البحرية عليه وأخذوا أيضاً في استخراج الأحجار اللازمة للبناء وكان كل هذا يبشر بالقضي في تنفيذ العمل الذي اقتضتهُ الضرورة للحصول على السفن في أقرب وقت الاَّ أن المسيو دي سريزي كان لا يزال غير مرتاح الى هذا الموضع وكان لا يزال دائباً في البحث عن محل آخر أصلح للمرام فرأى الشاطىء الممتد لصنع الفلائك في الاسكندرية في ذلك الحين في مأمن من هبوب الرياح وانتظام الأمواج ولكن كان عمق الماء فيه غير كاف ففكر في حفر الأرض وتعميقها فوجد الصخور على عمق ثلاثين قدماً تحت الماء وانهُ من الممكن رفع الرمل الذي فوقها بواسطة الآلات فوطد العزم على تشييد دار الصناعة بهذا المكان وعدل عن شاطىء مربوط عدولاً تامًّا وبدأ بلا إبطاء ولا مهل بخطط مواضع الورش والمحال التي تتحقق بوجودها مشروعات ولي الأمر العظيمة

واستطاع في يوم ٩ يونيه من سنة ١٨٢٩ م أن يقدّم اليه مشروع عمله فلم يلبث أن نال لديه القبول التام وبعد ذلك بساعة واحدة كانت ألوف الجند تشتغل بحفر أساس المباني والآلات الرافعة تستخرج الرمال من ارض الشاطىء والرجال تضع الأوتاد لبناء الأرصفة والاحواض وكان ولي الأمر قد أعقد أوامره الى مختلف المديريات بجمع الشبان الذين فيهم الاهلية للانخراط في سلك البحرية فأرسلوا الى الاسكندرية تباعاً وعند ما تكامل عددهم أخذ في تقسيمهم الى فئات ووزعوا على الصنائع البحرية من النجارة والحدادة والجلفطة والهندسة الميكانيكية والتخريم والنجارة الدقيقة وصنع الحبال والبكرات وما شاكل ذلك ولما بدىء في تعليمهم انتخب من كل فريق منهم من امتاز بالنشاط والذكاء فجعلوا أوباشية وجاويشية وضباطاً عليهم

وانا نعدُّ هذا الصنع من المسيو دي سريزي اعظم خدمة أداها لولي النعم وقد دفعته ميوله من قبل الى تعلم استخدام الآلات في مختلف الصنائع وكان ذلك سبباً في اصطلاعه بتدريب العمال بنفسه على ممارسة الصنائع التي انخرطوا في سلكها وبهذا اقترنت بداية العناصر

بسع الآلات وتعليم المصريين وصارت هذه [illegible] جباً الى جنب في [illegible] واحد

وفي ٣ يناير سنة ١٨٣١م أنزلت سفينة عليها مائة مدفع الى البحر ومن [illegible] توقت انحلت مشكلة البحرية المصرية وأصبح هذا الحلم أمراً واقعاً محسوساً ولكن كان لا يزال باقياً ان يقيم المسيو دي سريزي البراهين على عظم خطإ الرأي الأوربي القائل ان الفراكب التي تحمل أربعة وسبعين مدفعاً لا تستطيع عبور بوغاز الاسكندرية

وقد كان المسيو دي سريزي هدفاً لسهام النقد فلما تم صنع هذه السفينة أتم من جديد بأنه خدع ولي الأمر وعبث بما أولاه من الثقة وكفر بما أغدق عليه من النعم فلم يبال بذلك وعكف على تسليح هذه السفينة وبعد ذلك بزمن قليل خرج بها الى عرض البحر فأصبحت مسألة عبور السفن الكبيرة بوغاز الاسكندرية في حكم الشيء المعترف به ومنذ هذا الحين صار موضع إعجاب ولي الأمر وثقته التامة ولأجل أن يظهر مقدار ثقته به وسروره من عمله منحه سلطة لا حدَّ لها فازدادت مطامحه وتوجه بكليته الى القيام بعمل عظيم يصيرهُ أهلاً لمحبة محمد علي فصرف كل مواهبه في تنسيق البحرية المصرية وتنظيمها

وكان أمامه كثير من العراقيل يتحتم عليه تذليلها فقدومه الى الاسكندرية أفسد على عدد كبير من عمال التجارة التي كانت تجني أرباحاً طائلة ما كانت تؤمله من اضعاف هذه الأرباح في أثمان السفن التي ستدعو حاجة محمد علي الى ابتياعها منهم على سنن ما حصل في الماضي بدون أدنى تدقيق في قيمتها أو صلاحيتها. فأذاعوا عنهُ اذاعات السوء ووصموه بكل ما يشينهُ وأوسعوه سبًّا وشتمًا وهاجموه من كل ناحية وصوب ولم يكتفوا بذلك بل أضرموا نار الثورة والعصيان بين العمال الأجانب الذين يديرون مختلف الصنائع ويدرّبون المصريين فاختلَّ نظام الورش مراراً ودبروا المكايد عند أنزال السفينة الثانية فقطعت حبال الارتكاز وكان الغرض من ذلك القضاء عليها واستمرَّ العمال المالطيون والنيقورنيون يحضون العمال الطولونيين الذين احضرهم المسيو دي سريزي في السنة الثانية من تعيينه بدار الصناعة المصرية على العصيان والتمرُّد غاية في أمرهم هي أن يكونوا وحدهم على رأس كل عمل. فكل هذه العراقيل لم تقف في عضده بل قابلها بارادته الحديدية وثباته العجيب وأحبطها الواحدة تلو الاخرى وساعده على ذلك أن ولي الأمر صمَّ آذانه ولم يصغ لسعايات أخصامه ولم يعر التفاته إلاَّ لعمله الذي كان يتدرج في معارج الكمال بهمته ونشاطه

وانهُ لمن الصعب أن نأتي على جميع العراقيل التي اعترضت هذا المهندس الفرنسي العلامة وكافحها كفاحاً متوالياً بدون ملل لابتغاء إتمام مشاريعه العظيمة التي كان يعلم بأنها ستكون يوماً ما حقيقة واهنة وأن مصر ستبلغ بها ذرى النجاح

... في أول الامر أن ... عدداً كبيراً من الأ... حتى يحقق أمنية ... الذي ... يريد أن تكون له ... بحرية عظيمة في أقرب وقت فاقتضى الامر أن يراقب بكل يقظة وانتباه صغار الأمور وكبارها وأن يسرع الى تلافي كل ما يحدث من الخلل ويعالج يومياً نار الثورات التي كان يشب أوارها ويضرب على أيدي السارقين ويكبح جماح المتمردين ويصلح الأغلاط التي كان لا بدّ من وقوعها في هذا العمل السريع . وبالجملة فقد كان عليه أن يسهر على كل أمر ويراقب جميع الاشياء ويوفق بين الميول المتناقضة ويقبض بيد من حديد على زمام الأهواء الجامحة ويعمل من جهة أخرى على تخفيف حدة الاعياء وتدريب المصريين على مختلف الأعمال فهد له ذلك شيئاً فشيئاً الاستغناء عن أكثر الأوربيين المشاغبين وأرضه ذلك أخيراً الى قيام المصريين بانجاز سائر الأعمال حتى لم تبق له حاجة الاّ الى فئة قليلة من المعلمين الفرنسيين الذين دعت الضرورة الى استبقائهم للاشراف على العمل ولولا سلاسة قيادة المصريين ودماثة أخلاقهم وما فطروا عليه من الذكاء وسرعة الخاطر مع الجلد لما وصل المسيو دي سريزي الى هذه النتيجة

مباني دار الصناعة — أنشئت دار الصناعة على شاطىء رملي مقفر فقضت الحاجة ان يشاد عليه من جديد كل شيء تدعو اليه ضرورة العمل فبنيت به اربع مصاطب كبيرة ممتدة من الساحل الى داخل البحر لتشاد عليها السفن الكبيرة التي من الصنف الأول (الفاق) وثلاث مصاطب أخرى لبناء السفن التي من أنواع الفرقاطة والقرويت والقنول والكوتر وغيرها . وشيد بناء كبير ليكون مخزناً عاماً للذخائر البحرية ومصنع للحبال وعُدّد ضمنه مصانع أخرى لاذابة المعادن والحدادة والخراطة والنشر والميكانيكا والسباكة واللحامة (السكرية) وصنع الرصاص والزجاج والآلات البحرية والبكر والأشرعة والبراميل ومصانع لبناء القوارب والزوارق ولصنع آلات رفع الأثقال وعجلات النقل والكانات (الدقات) ويحفظ نماذج رسوم تصميمات أنواع السفن . والأدوات التي تستعمل في تسليحها كالمرجل الغطاس وسقائف لخزن الأخشاب ولحفظ آلات تنظيف السفن وأدوات ترميم القسم الغاطس منها في الماء وتنظيف أضلاعها وقاعها الخ

وقد أقيم في رشيد مصنع لنسج أقمشة الأشرعة ومصانع اخرى لأنواع الحدادة كي يلجأ اليها عند مسيس الحاجة في الطلبات المستعجلة كما قد أقيم في القاهرة ايضاً مصانع من هذا القبيل تشتغل ايضاً لهذا الغرض

ولكيلا تجتمع الصنائع جميعها في بلد واحد درّب المسيو دي سريزي فريقاً من المصريين على صناعة جبان السفن ثم بعث بهم الى قراهم ليقوموا بهذا العمل فيها وليسدّ بذلك حاجة المراكب الى الأمراس بتوفر الصناع على عملها في مختلف البلدان